السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

1- سقوط القسطنطينة 1453 وآثاره على مستقبل العلاقات الدولية

أ.د. عبد القادر فكاير

1- فتح محمد الفاتح للقسطنينية:

أدرك الفاتحون منذ القدم عظمة هذه المدينة وأهمية موقعها ، وقد كان للمسلمين الأوائل منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام. ولنذكر أن المسلمين قد حاصروا القسطنطينية إحدى عشر مرة ، منها سبعة مرات في القرنين الأوليين للإسلام. وأعظم محاولاتهم ما كان في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، وسليمان بن عبد الملك في القرن الأول الهجري. ثم ظهر الأتراك العثمانيون ، وحاصر العثمانيون في عهد بايزيد الأول القسطنطينية ثم اضطر بايزيد لرفع الحصار عنها حين ظهر المغول ، ثم حاصرها مراد الثاني ولم يتمكن من النيل منها لضعف الأسطول العثماني كقوة مهاجمة فَتركها و إن الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الرومانية القديمة ومن ثم تحويل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية ذات توجه عالمي ، كان حلما يراود الباب العالي منذ زمن بايزيد الأول .

وفي أواخر القرن 14م بدأت الدولة البيزنطية تأخذ في الضعف والتفكك ، وفي نفس الوقت الذي كان العثمانيون يعملون على تنظيم شؤونهم والإعداد لتأسيس دولة قوية متماسكة. وقد بدأ الأتراك في محاصرة القسطنطينية بخمسُين ألف رجل ، وقاموا بنصب معسكرهم في مواجهة المدينة لمدة ثلاثة أيام ، وبعدها عاد الأسطول العثماني إلى غاليبولي ، حيث وصلها في السادس من شهر سبتمبر 1453م ، كذلك فعلت القوات البرية المحاصرة للمدينة. كانت المدفعية سلاحا حاسما في الحصار، إذ أخذت في قصف أبواب و أسوار وأبراج المدينة ، ولكن الخطوة الحاسمة جاءت على يد البحرية العثمانية التي نقلت برا إلى القرن الذهبي خلف السلسلة العظيمة التي كانت تسده ، وبذلك أصبحت العاصمة مهددة من كل الجوانب. وفي 29 ماي 1453 م أو بعد سنتُين من اعتلاء السلطان محمد عرش الدولة ، قامت فرق الانكشارية بحملة أخَيرة على أسوار القسطنطينية ، وفتحوا البوابة في السور الكبير وذهبوا رأسا إلى السياج ،وكانت معركة كبرى قتل فيها من تمركز هناك ، فقد هاجمهم المشاة من المسلمين ولم يتعرض الآخرين في التكوينات المنتظمة والذين خرجوا من أماكنهم بسبب الصياح لنفس المصير. أما بالنسبة لم أسر من القادة والزعماء البيزنطيُين فإنه قد عفى عن وزراء الامبراطور لوكاسوماجدكوس ، أما العسكريين فقد ظلوا في الأسر. وهكذا فتحت المدينة المحصنة ، بعد حصار دام إحدى وخمسين يوما على يد محمد الفاتح الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وانتهت بذلك آخر صفحة من صفحات تاريخ بيزنطة ، وتوسع محمد الفاتح في أوربا، إذ دانت له معظم شبه جزيرة البلقان .

نتائج الفتح العثماني للقسطنطينية 1453

أحدث فتح العثمانيين للقسطنطينية في 29 أيار (مايو) 1453 دوياً كبيراً في عالم العصور الوسطى. فقد جاء إيذانا بما يمكن تسميته - تجاوزاً - نشوء نظام عالمي جديد، بعدما نجح العثمانيون في القضاء تماماً على بيزنطة إحدى أهم القوى المؤثرة في العصور الوسطى لأكثر من احد عشر قرناً.

1- على صعيد العالم الإسلامي:

ونتيجة لفتح القسطنطينية فقد تمكن العثمانيون من السيطرة على ضفتي مضيق البوسفور، والربط بين الأراضي العثمانية في آسيا الصغرى والقارة الأوروبية، وهو ما أدى إلى تحسين وضعهم الجيوبوليتيكي بشكل واضح، و سيطرتهم الكاملة على طرق التجارة بالبحر الأسود وأدى ذلك إلى تنامي القوة البحرية العثمانية، حيث بدأ الاهتمام ببناء الأساطيل لمساعدة القوات البرية في مرحلة الفتوحات الجديدة، بخاصة بعد أن لوحظ عدم كفاءة الأسطول العثماني إبان المعارك البحرية مع الأسطول البيزنطي قبيل فتح القسطنطينية.

بدأ العثمانيون في تدشين مرحلة جديدة، والتحول من مرحلة الدولة إلى مرحلة الإمبراطورية، بعد أن أصبحت ممتلكاتهم تحتل رقعة واسعة، وبعد أن اتخذ السلطان محمد الفاتح من القسطنطينية عاصمة جديدة له.

وعلى صعيد العالم الإسلامي عمت مشاعر الفرح نتيجة نجاح العثمانيين المسلمين في فتح القسطنطينية. وعلى رغم حالة التوجس التي اكتنفت العلاقات العثمانية - المملوكية، فقد أعلن المماليك ابتهاجهم بهذا الحدث، الذى عدوه علامة على انتصار الدين الإسلامي نفسه.

وأرسل السلطان محمد الفاتح رسولاً للسلطان المملوكي الأشرف إينال في تشرين الأول (أكتوبر) 1453، يهنئه فيها بجلوسه على دست الحكم في القاهرة، ويخبره بنجاحه في فتح القسطنطينية، ويهديه أسيرين من كبار المسؤولين البيزنطيين بالقسطنطينية.

وتعبيراً عن فرح العالم الإسلامي بهذا الحدث الجلل، أمر السلطان إينال بتزيين شوارع القاهرة والحوانيت والأسواق لأيام عدة. كما قام بالرد على رسالة السلطان بإرسال مبعوث التهنئة الفاتح بانتصاره ..... هذا النصر الذى من الله تعالى به على المسلمين.

كان من الطبيعي أن تكون العلاقة الطيبة والودية موجودة بين محمد الفاتح، والأشرف إينال، لأنه لم يكن قد ظهرت في الأفق بعد نذر احتمالات الصدام العثماني المملوكي. ولهذا فقد نظر المماليك إلى انتصارات الفاتح على القوى المسيحية الأوروبية بعين الارتياح، ظناً منهم أن ذلك قد يحول نظر العثمانيين بعيداً من حدود دولتهم.

كما أرسل العديد من الحكام المسلمين، كالبهمني سلطان الهند الجنوبية وآخرون سفراء إلى القسطنطينية لتهنئة السلطان محمد الفاتح بنصره.